وضع المخطوطات العربية في بعض المكتبات العامّة في نيجيريا

د. عبد الرشيد محمود مقدم

مدخل:

يتمحور هذه الورقة المتواضعة بالحديث عن وضع المخطوطات العربية فى بعض المكتبات العامة في نيجيريا؛ وهذه المكتبات من الأماكن الحساسة التي لها من الأهمية بمكان أن تكون محلّ الاهتمام لما في خزانتها من المخطوطات العربية التي تروي غلل الباحثين، وتعمل فى إشباع نهمات الدارسين في البحث والتنقيب. وهى تلك المخطوطات التى تقدر كميتها فى إحدى المكتبات العامة فى نيجيريا أنها تبلغ نحو مئة وستين مخطوطا، ومن المقطوع به أن هذا العدد قد لا يتوقف على هذا الحد بل يزداد عند عثور على مخطوطات أخرى من عصارات أفكار العلماء القدامى.

وتدرس هذه الورقة وضع المخطوطات العربية فى بعض المكتبات النيجيرية مع النظر إلى بعض الإشكاليات التى تواجه هذه المخطوطات وما تتطلب من الحلول؛ وذلك من خلال المبحثين اللذين تتفرّع منهما فصول.

المبحث الأول: المخطوطات العربية وحالتها فى بعض المكتبات العامة في نيجيريا .

لمن المستحسن قبل الخوض فى هذا الموضوع أن نتعرف على ماهية المخطوطات من حيث الدلالة اللغوية و الاصطلاحية، إذ قد جرت العادة على أن الأشياء توقف معرفتها على الماهية التى من خلالها نتعرف على حقيقتها وجدواها، فنشرع بالتعرف على ماهية المخطوطات اللغوية والاصطلاحية.

المخطوطات فى المدلول اللغوي والاصطلاحي:

إذا تتبعنا هذه الكلمة نجد أنها استمدّت من ثلاثة أصول، فهي من مادة: خ ط ط، ماضيها خطّ: وهى عبارة عن طاءين؛ الأولى ساكنة، والأخرى متحركة فأدغمت الساكنة في المتحركة فصارت خطّ، يخطّ، خطًّا، ويصاغ منه المخطوط على زنة مفعول فهو ما وقع عليه عملية الخط وهو مخطوط، ويجمع على المخطوطات بمعنى ما كتب بالخطّ اليدويّ دون المطبوع(١).

ونقف على هذه المادة فى الاستعمال القرآني من حيث قوله تعالى « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطّه بيمينك إذا لارتاب المبطلون.» العنكبوت: ٤٨، وفى الحديث النبويّ فيما رواه ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم خطّ بيمينه على الأرض خطًّا، وخطّ على جانبه خطوطا..... فقال: إن هذا صراطى مستقيما فاتّبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله.

والمخطوطات في العرف الاصطلاحي أو في نظرة الباحثين يقصد بها مجموعة تلك الأعمال الأدبية العلمية والوثائق التاريخية التى قام بكتابتها أفراد من الباحثين أو العلماء المفكرين لتكون تراثا خالدا يشار إليه بالبنان. أو هي تلك الأعمال التي في بوتقة ضيّقة معيّنة لم تر بعد نور الحياة بالتحقيق والطبع و النشر وما إلى ذلك مما يخرجها من ظلمة الخفاء إلى نور الجلاء، وهي-باختلاف أنواعها- فى أماكنها المبعثرة من المكتبات العامة والمكتبات الجامعية والمراكز الوطنية والدكاكين وبيوت العلماء والوراقين(٢)، خلافا لما يزعم البعض أن المخطوطات يتوقف مفهومها علي تلك الأسرار والأوفاق والطلاسم الموروثة من الآباء والأجداد من العلماء فحسب بل إنها تعدّت كل ذلك إلى ما تمسّ تلك الأبحاث العلمية والثقافية والتاريخية على أوسع نطاقها اللامحدود(٣).

× بين المخطوطات والمطبوعات

شاعت بين الدارسين والباحثين –اليوم- ظاهرة إطلاق المخطوطة على المطبوعة والمنشورة من الكتب، ومما لايتطرق إليه أدنى شك أن بينهما فرقا

دقيقا ويتّضح هذا من أمرين:

الأول: في تعريف مجمع اللغة العربية بالقاهرة للمخطوطة –كما سبقت إليه الإشارة في البداية- أنه يطلق المخطوطة على ماكتبت بالخط اليدوي دون المطبوعة. يظهر على القارئ العزيز بالجلاء أن هذا التعريف يثبت وجود الفرق بين الكلمتين وتلك من خلال إفادة «دون» في إخراج المطبوعة من دائرة المخطوطة.

الثانى: في الآية القرآنية السابقة التي هي من ماكنات القرآن-وهي وحدها- تضمنت مادة الخط حيث قوله تعالى :» وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولاتخطّه بيمينك إذا لارتاب المبطلون» العنكبوت:٤٨ على إنه لو اكتفى –في غير ما هو القرآن –على الفعل والفاعل والمفعول-ولاتخطه-قد أفاد المعنى ولكن تعدى كل ذلك إلى المتعلق بالجملة الذى هو الجار والمجرور- بيمينك- وفي ذكر هذا المتعلق بيان وإزالة اللبس والريب في أن يوقف مفهومه على ما كتب بالخط اليدوي –وحده- دون المطبوعة.

ومن هنا نجد التوافق التامّ بين التعريف اللغوي والاستعمال القرآني لمفهوم كلمة المخطوطة التى تطلق على مالم تزل على الصورة البدائية بالكتابة اليدوية من الكتب التى لما تطبع ولا تنشر ولاتحقّق بعد.

×المخطوطات العربية تشكو من ويلات التتار

ومما يورث الكلوم في قلب كل ذي عقل سليم أو كل مسلم غيور تلك المصيبة الكبرى و الكارثة العمياء التى أصابت تراثنا العربي ولم نر له بعد- حتى يومنا هذا- من بديل لعظمة ما احتل على تلك المكتبات الإسلامية بالأندلس من الدمار جراء حقد التتار بإغراق الكتب الإسلامية والمراجع العربية معظمها المخطوطات القيمة فى نهر الدجلة، أوعصارة سوء تدبير محاكم التفتيش الإسبانية(٤)، والتى تعتبرها المكتبات العربية اليوم خسارة ما بعدها خسارة وتزداد لها يوما بعد يوم دموعها الغزار، والتى كانت محقة علينا- نحن المعنيّين بها- أن نعزيها ونسليها عن تلك الويلات بأن نفرغ ما أبقى لنا الزمان منها فى قالب الاحتفاظ والصيانة، وننفق فى سبيل إنقاذها أنفس المهج كي لا تتكرر عليها تلك المصائب أو يعتورها ما يشبهها من الكوارث كالحريق الذي تعرضت له فى محافظة ثالامي في ولاية صكتو النيجيرية عام ١٩٥٨م، والذي نجم عنه إتلاف ما يربو على ثلاثة مئة كتب وخمسة وعشرين مصحفا(٥) وغير ذلك مما قد تأتي من قبل الدارسين والباحثين فتدعو إلى إتلافها بجعلها فى سلة الإهمال نتيجة عن عدم المبالاة والتلاعب بقداستها مع غلاء قيمتها-على أيدي أرباب العربية من الأكاديميّين وغيرهم على السواء، فأصبح لسان حال بعض مكتباتنا العربية اليوم تنشد- بأعلى صوتها – من يعمرها ويتعايش ما فيها من روافد علمية وعصائر فكرية من المراجع والمخطوطات التى تكتظ بها هذه المكتبات-عامتها وخاصتها-كما هي فى نشدان من يوليها العناية بالفهرسة والتحقيق والنشر.

• من المكتبات التي في حوزتها المخطوطات العربية.

أ- مكتبة المتحف الوطني بجوس. Jos Museum`s library

وهي مكتبة عامة توجد في المتحف الوطني بجوس الذي وضع حجره الأساسي في اليوم الثالث والعشرين من سبتمبر ١٩٤٩م وتمّ البناء وفتحه عام ١٩٥٢م بعد مثيله الأول الذى يقع في مدينة أيسيي(Esie) في ولاية كوارا على مقربة عاصمتها- إلورن- على امتداد الطريق الموصل إلى لوكوجا ولاية كوغي(٦) ونتج تأسيس هذا المتحف عن عملية البحث عن المعادن والحفريات ثم توسع- بعد ردح من الزمن- باحتضان شعبة الأثريات ومعارض أعمال النحت والفن والآثار القديمة وحديقة الحيوان(٧) واستقر في جوس التي تعتبر مركز الأراضي الشمالية في نيجيريا حيث غزارة الهضاب والجبال والجوّ الممتّع مما جعل-بالكثير-انسياب الأجانب البيض إليها. وعلى الجناح الأيمن من الباب الرئيسي للمتحف توجد هذه المكتبة عند الاتجاه إلي مكتب وكيل المتحف- Curator-ويمكن الوصول إليها عبر ارتقاء السلاليم التي تمتد من الخارج وفي قبالتها قاعة الاجتماع –Auditorium- التي فيها تقام الاجتماعات والمؤتمرات والندوات وحفلات الأفراح.

وكانت هذه المكتبة من أجرأ المشروعات التي حقّقت في هذا المتحف لاعتبارها إحدى المكتبات العامة في نيجيريا التي تحتضن المراجع الضخمة والمخطوطات القيمة والوثائق المهمة، التي اصطفّت في الرفوف الخشبية المغطّاة بالزجاج كانت – أكثرها- عرضة للكسر والإتلاف، مما تجعل هذه المراجع تعاني أبشع الحالات من تأثيرات جوّية تذهب بأبهة ألوانها بالكثير، ومن تطاير الغبار المتراكم المنبعث من تنظيف السجادة المفروشة في داخل المكتبة ، كما يضارعها أشنع التعامل من أيدى الزوّار القرّاء حينا بعد آخر إضافة إلى تلك الفجوات المتكاثرة في السقوف التى يتقاطر عبرها المياه في موسم المطر، وغيرها مما يهدّد مستقبل هذا التراث الهائل في هذه المكتبة، ولمّا يعر لها-حتى الآن- الاهتمام.

وفي حوزة هذه المكتبة كثير من المخطوطات العربية القديمة التي كتب معظمها باللغة العربية والأخرى مكتوبة بلغات أهلية بحروف عربية (العجمي) (٨)، وتحمل هذه المخطوطات وغيرها من الكتب المطبوعة في الغلاف الأمامي عناونها المترجمة ترجمة حرفية إنجليزيةTransliteration التي كانت نتاج عملٍ جهيدٍ قام به الأستاذ الدكتور زكريا حسين عميد كلية الآداب -سابقا- بجامعة إلورن، عند ما طُولب بالقيام على هذه العملية عام ١٩٨٧م، وقام الأستاذ بالترقيم وفهرسة هذه المخطوطات وغيرها بأرقام مسبوقة برموز إنجليزية مثلا (JM /A.MS.٦٩ (وهي توحي في دلالتها Museum Jos ٦٩.Arabic Manuscript كما أعدّ لها قائمة مفهرسة بالأرقام والرموز، وضبط مقاييس حجم الكتب مع الكشف عن مصادرها مما يسهّل- في مستقبل الأيام- لمن يريد الإقدام على تطوير هذه الفهرسة، فكان مجموع المخطوطات المرقّمة في تلك الآونة ألفا وواحدا(٩) (١٠٠١) ؛ غير أن الباحث لايوافق الأستاذ في إطلاق الرمز ms)) علي الكتب المطبوعة المنشورة التي لم تبق بعد على صفة المخطوط، ولعلّ هذه الحالة ممّا يشير إليها أحد الباحثين بأنه تغلب على سيمة هذه المكتبة ظاهرة الخلط بين المخطوطات والمطبوعات والمنشورات(١٠).

ومن المجهودات المشكورة-ونحن في هذاالصدد- ما قام به الأستاذ بابا يونس محمد من إعداد فهرسة عربية للمخطوطات العربية وقد تمّ تقديمها إلي مؤسّسة الفرقان للتراث الإسلامي بلندن، وهو في عداد ماكان تحت الإعداد للطبع من المؤسسة(١١).

ولم تقف جذور جهود الأستاذ حسين عند ذلك الحد فحسب بل تمتد إلي غير ذلك مما جعل له فاعلية بارزة في مكتبة المتحف الوطني بجوس، وإنه كان يضمن القسم العربي فيها حينا بعد آخر بمسؤول عربيٍّ، على صدارتهم الأخ جامع Oluwatoki من ولاية أيكيتي تخرّج فى مرحلة الليسانس بجامعة إلورن،. اختاره الأستاذ حسين على اللجنة كأوّل مسؤول عربيّ عن المخطوطات العربية بمتحف جوس، ثم قدم هذا الأخ الاستقالة عام ١٩٩٤م محاضرا في جامعة ليغوس(١٢) ثم طولب منه مرة ثانية مسؤول عربيّ آخر فوقع على الباحث اختياره وأصبح هو وزميله- في المكتب- من ولاية كوغي مسؤولين عن شئون المخطوطات العربية بالمتحف الوطني بجوس قبل تحويل كلّ منهما على حدة إلى مكاتب المتحف الأخرى في الوطن. ويماثل الأستاذ حسين-بهذه الخدمات المكثّفة وغيرها- ذلك العالم الكبير يوحنا هنويك John O. Hunwick الذي اعتبره أحد الدارسين كالمرجعية العظمى في هذا المجال من خلال خدماته الجليلة التي قدمها للأدب العربي الإسلامي بصفة عامة والمخطوطات العربية بصفة خاصة(١٣).

وتتضمن هذه المكتبة المخطوطات الكثيرة-على اختلاف المشارب والموارد-من الفقه الإسلامي، والتوحيد، والسيرة، والتاريخ، والوثائق الحكومية والقومية، والقواسيم، والرسائل القيّمة وما إلى ذلك، ولنذكر منها على سبيل المثال دون الحصر»قصيدة شرب الزلال للبرناوي في فقه الحلال والحرام «، و»المغازي لأحمد بن فوتو في السيرة»، و»قصيدة في علم الفرائض بدون مؤلف»، و»فقه اللغة لمحمد بلّو»، و»نور الألباب في التوحيد للشيخ بن فودي «، و»منظومات مزجرة الفتيان....لابن الصباغ الكشناوي»، و»رسائل لموطي لموساوي الكشناوي»، و»أدب العلماء لابن النساج»، و»أصول العدل لولاة الأمور وأهل الفضل في السياسة «، و»أصول كنو وتاريخ السلاطين»، و»غرائب الأخبار»، و»كتاب

هذا تاريخ أرباب هذا البلد المسمى كنو»، و«رسالة الشيخ محمد الأمين الكانمي الموجّهة إلى أخته الشقيقة رقية وبنته خديجة»وأخرى موجهة خاصة إلى أخته «، و«رسالة أمير كاشنة محمد دك بن محمد غداد»، و«رسالة الشيخ محمد المهدي بن عبدالله إلى أحبابه في الله» وغير ذلك من المخطوطات العربية التي تكتظّ به مكتبة المتحف الوطني بجوس.

ب- دار الوثائق القومية بكادونا

The Nigerian National Archives، kaduna

وهي أيضا من المكتبات العامة التى تتعامل مع المخطوطات العربية والتى تقدر كمية ما فيها من المخطوطات العربية أنها تربو على ألف وستّ مئة وخمسة وأربعين (١٦٤٥)، وتأرّضت هذه المكتبة في مدينة «كَادُونَا» وهي إحدى المدن الشماليّة المشهورة في نيجيريا.

ومما لايدع المجال لأدنى شكّ أن هذه المكتبة كانت تعانى –شأن أختها السابقة–الحالات البشعة من سوء التصرّف الذى ينتج عن عدم العناية اللائقة بها.

ولقد قام بإعداد فهرس مخطوطات هذه المكتبة الأستاذ بابا يونس محمد فهرسة عربية، وأشرف على طبعه مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي بلندن Al furqan Islamic Heritage foundation، London فطبع على جزأين كان مجموع ما بين دفتيه (١٦٤٥) مخطوطا، وهي مرقّمة على حدة مرموزة بحروف إنجليزية توحي في دلالتها على مكان حوزتها،كانت بعضها على هذا الرمز –مثلا–٦/A/AR٥)) وهي تعني Archives Arabic ٦/٥ كما يكشف هذا الفهرس الكشف عن المؤلف–إن كان مذكورا عليها–وعن تاريخ الكتابة والموضوع الذى كتبت فيه وعدد الأوراق وميقاس الورقة والنصّ مع عدد الأسطر،كما يزيل النقاب–في كثيرها– عن الحالة الوضعية التى كانت عليها معقّبا في الغالب بالملاحظات.

قدّم المفهرس فى هذا العمل جهودا مضنية لاتقدّر بدرهم ولادينار إلا أن فيه اختلاطا بين الحابل والنابل في ضمّه كثيرا من المطبوعات والمنشورات في مجموع المخطوطات، ونضرب لذلك مثلا كتاب الرسالة للقيرواني، والعشرينيات للفازازي، والآجرومية للصنهاجي، وملحة الاعراب للحريري، وقصيدة البردة للبوصيري، والألفية لابن مالك، الفيوضات الربانية للجيلاني، والدالية للألوسي وما ضاهاها من الكتب التي قد تمّ طبعها ونشرها فلا تعد– بعد– مخطوطة(١٤).

وفي عداد هذه المخطوطات ما كتبت باللغة العربية– في ألفاظها ومعانيها– وأخرى بحروفها ولكن في اللغات الأهلية ككتاب بيان البدء لعيسى بن عثمان، و قصيدة فلاتية لمحمد تكر بن محمد الفلاني، وشعر غلاديما لعبدالله بن غلاديما، ومنظومة فلاتية للشيخ عثمان بن فودي وغيرها في الفلاتية، وقصيدة هوسية للشيخ عيسى بن عثمان محمد فودي وغيرها في هوسية(١٥). هذه هي من بين المخطوطات المفهرسة في دار الوثائق القومية بكَادُونَا حسب فهرس المخطوطات لبابا يونس محمد.

× المكتبات ودارسو العربية

إن معظم المحن التى ابتليت بها المكتبات العربية اليوم كان من قبل دارسي العربية بحيث أصبحت هذه المكتبات بمخطوطاتها ومراجعها العلمية تحنّ إلى أيدى القراء والباحثين من الذين يستأنسونها ويستفيدون منها، ولكنها أصبحت – لعدم انسيابهم إليها – يعتادها دويبات مستهلكة من الأرضة والفيران وغيرها مما تفضي سلامتها إلى الإتلاف، كما أصبحت تتطاير على صفاءها الغبار والأوساخ نتيجة عن عدم اهتمام القرّاء والباحثين، ولعلّ العيب فى هذا يرجع إلى الأكاديميّين من محاضري العربية فى مختلف الجامعات الوطنية حيث إنهم لا يلزمون على طلابهم عملية البحوث المتواصلة والتنقيبات الدؤوبة المستفيضة مما يشدّ اضطرارهم إلى حيث هذه المكتبات –عامتها وخاصتها– فيزول عن أعينهم اللثام عن ما تتمتّع به العربية من ثروات غزيرة.

ولقد تبيّن هذا على الباحث بالجلاء عند ما توظف باللجنة الوطنية للمتاحف والآثار بنيجيريا وعيّن لإحدى مكتباتها بجوس كالمسؤول الأول للمخطوطات العربية،ويوجد فى هذه المكتبة جانبان : الإنجليزي والعربي ومنذ تواجده بها لم يطلع عليه شمس يوم إلا ويأتى فيه باحثٌ إنجليزىٌّ

أو أكثر يقرأ فى هذا القسم ويبحث بالكثير فى حين كان الآخر – الجانب العربى–لم يرزق طول يومه من يرتادها ويتفقد أحوال ما فيها من المراجع والمخطوطات بالقراءة والبحث سيما التحقيق والنشر.

ومن هنا يرى الباحث من الأهمية بمكان أن ينادى بأعلى صوته أن يولى دارسو العربية لهذه المكتبات العربية بالغ اهتمامهم لئلاّ تتّصف بالقمامة الملقاة فى سلّة الإهمال والمزابل، إذ هي تعتبر –بحق– من الأماكن الحساسة حيث التسويق الفكري الذى تباع فيها سلع العلوم والمعارف بأثمان باهظة من دقائق وساعات تصرف فيها.

ولقد شاعت عبر الأخبار المتواترة فى بطون الكتب الأدبية أن هناك عديدا من عمالقة العلم وجهابذة المعرفة من العصاميّين أمثال: مصطفى صادق الرافعي وغيره ممن لم تتح لهم سوانح الفرص للتلقي على جدران المدرسة ولم يحصل لهم الانضمام إلى قاعات المحاضرة فى الجامعة فينهلوا من معينها، ولكن أهّلهم انكبابهم على القراءة في المكتبات وتواصل البحث والتنقيب مؤهّلات علميّة فائقة فأصبحوا اليوم فى مجموعة من كتبت أسماؤهم بماء الذهب والفضة على صفحات الأدب والتاريخ وهم في جملة من يشار إليهم بالبنان لما حازوا من قصب السبق فى رصائد علمية كافية فى مختلف المجالات، وصارت شخصيتهم فى المحصلات العلمية والفكرية تصدق ما يقال « إن الكتب تخلق الفوارق» Books make a difference

ولقد حان الوقت أن نعير مخطوطاتنا العربية الاهتمام وهى من جياد تراث تركها لنا الآباء والأجداد، ولا تعرف مالها من القيم إلا إذا تناولها أيدينا – نحن الأبناء والأحفاد– بالدراسة والتحقيق والنشر.

وعادة السيف أن يزهى بجوهره
وليس يعمل إلا فى يد البطل

• المبحث الثانى: الحفاظ على المخطوطات وصيانتها

ومما يجدر أن نهتمّ بحفظه وصيانته تلك المخطوطات العربية التى تحتل بصدارة التراث الإسلامي الذى لأهميته أسست مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي بالمملكة المتحدة ويجلو ذلك من خلال ما قاله رئيس الإدارة لهذه المؤسسة حيث يقول «لقد أنشئت مؤسسة الفرقان استجابة لمتطلبات الظروف المحيطة بالتراث الثقافي الإنساني عامة والإسلامي خاصة، ففى ظل المناخ الحالي حيث يؤدي التعصب وضيق الرؤية إلى العدوان والصراع، نشعر بأن تراثنا الروحي والأخلاقي مهدّد. وكثيرا ما تظهر صورة الإسلام وتشعره بوحشة بعيدة عن العدل مما أدى خلال السنوات القليلة الماضية إلى تدمير حاملات الثقافة الإسلامية مثل المخطوطات(١٦)».

ومفاد ذلك؛ أن هذه المؤسسة تعمل على إنقاذ المخطوطات الإسلامية وجعل هذا التراث المخطوط فى متناول أيدى الدارسين والباحثين، كما تحاول أن تلتزم بقدر من المرونة مع الحفاظ على إستراتيجيتها المعلنة، وما زال مشروعها لتوثيق تراث المخطوطات مستمرا وذلك بإجراء مسح شامل لمجموعات المخطوطات الإسلامية فى العالم وفهرستها إلى جانب العمل على حفظها وتصويرها علي المكروفيلم وتسجيلها على الأسطوانات المدمجة ونشر طبعات جديدة لأمهات المخطوطات محقّقة تحقيقا علميا(١٧).

كما قرّر لأهمية هذا الحفاظ على المخطوطات اللجنة الشعبية الدولية للجائزة بليبيا بإسناد جائزتها إلى معهد أحمد بابا للدراسات العليا والبحوث الإسلامية وبقية مكتبات المخطوطات وحفظها، باعتبارها ذاكرة ثقافية معرفية من حق الشعوب الإسلامية وكل البشرية الحفاظ عليها وصيانتها، وتمثل إرثا حضاريا للإنسانية جمعاء، ويؤرخ لتاريخ طويل من القارة الأفريقية فى كل مجالات الحياة(١٨).

كما أنشأت جامعة الدول العربية بالقاهرة معهد المخطوطات العربية عام ١٩٤٦م للذود عن بيضة هذه المخطوطات العربية فقام بأداء الأمانة المنوطة تجاه هذه المخطوطات وتجسّدت له أدوار وأنشطة وأهداف وحركات التى لن ينساها إلى الأبد هذا التراث الإسلامي الخالد لفاعليتها فى جميع المكتبات العربية فى الأقطار العربية والغربية حتى استوى هذا التراث على سوقه فأينعت ثمار هذه المخطوطات وتؤتى أكلها كل حين بإذن ربها.

وبهذا كله، يتحقق هذا الحفاظ على المخطوطات بالاعتناء بهذه المحاور

الآتية التى بها تتبوّأ هذه المخطوطات مكانتها العالية وتتمتع بقداستها الخاصة فى عالم القراءة والتأليف، وتنحصر تلك المحاور على هذه النقاط التالية.

• التعرف علي كيفية صيانة المخطوطات

إن لهذا الموضوع خبرة مكثفة تحتجز –في تخصصها–خبراء ممتازين Conservationistsفي كثير من أماكن هذه المخطوطات، ونستحضر فى هذه السطور التالية طفيفا من الخبرات المتعرف عليهامنهم في صيانة المخطوطات.

وعادة أن الأشياء أو الممتلكات تستجد وتخلد مادامت تسقي –حينا بعد حين– ماء الاهتمام والعناية بالحماية والصيانة، فهذه كلها كانت المخطوطات في أمس الحاجة إليها.

ولا تتحقق هذه الصيانة بالنسبة للمخطوطات إلا بالنظر الدقيق إلي ما تفضيها إلي الإتلاف ثم المحاولة علي القضاء عليها أو التقليل من شأنها، ويتسنى لنا هذا عن طريق الأخذ بالأمور الآتية– حسب دراسة بعض خبراء صيانة المخطوطات–فهي كما تلي:

- إزالة الأوساخ المتراكمة علي المخطوطات باستخدام المكنسة الهوائية الكهربائية أو عن طريق استخدام المنظيف الذى في إمكاننا أن ننظف بعد تعرضه للأوساخ.
- أو عن طريق استخدام الفرجون الناعم لإزالة الأوساخ والأدران بالسهل.
- التأكد على نظافة أيدي القارئين قبل تناول المخطوطات أو تغطيتها بالقفازGlove عند مساسها.
- تحريم تناول الأطعمة والأشربة في أماكن المخطوطات.
- الزيارة الفاحصة المتواصلة لتفقد أحوال هذه المخطوطات التى من خلالها التيقن على تفاديها عما قد يعرضها إلى الإتلاف من الأرضة وطول المكث.
- محاربة درجة الحرارة التي تأتي عبر السقوف، وتحصل عن طريقتين:

أ– بتلوين –هذه السقوف بالجصاص.

ب– استخدام الزجاجات التى تقلل درجة انعكاس ضوء الشمس المؤدي إلي فقدان اللون.

جـ– توافر الهواء التي بها تنعدم الحرارة.

د– جعل الفرجة المتزايدة التي تسمح توافر الهواء.

• محاربة انعكاس ضوء الشمس الذى يتسلل إلي الداخل من قبل الشبابيك وهى عن طريق أمرين:

أ– جعل الستار –على الشبابيك– الذي يمنع انعكاس ضوء الشمس إلي الداخل بالكثير.

ب– إعداد دهاليز فارغة تظلل وتحجز انعكاس ضوء الشمس(١٩).

فهذا كله من الجانب العادي–في صيانة المخطوطات– وهو لايقل أهمية عن الجانب الآخر في الصيانة التقنية التى تصان بها المخطوطات من الإتلاف والضياع كاستخدام القرص المدمجة أو المكروفيلم في تخزينها أو إنشاء خزينة حاسوبية لها، كما قام بذلك مكتبة ويلكوم Welcome library بالمملكة المتحدةللمخطوطات الإسلامية الطبية (hpp:// Library. wellcome.ac.uk) وكذلك الأستان يوسف زيدان المصري مدير المتحف ومركز المخطوطات بالاسكندرية(www.zeidan. com) وكما استخدمت خزينة حاسوبية لمشروع المخطوطات بغرب أفريقيا التى ترمي إلى تحويل التراث المخطوطي إلى الأرقام في ضمن مشاريع أخرى تهدف إلى حماية المخطوطات وتعميم الاستفادة بها(٢٠).www. westafricamanuscripts.org/ index.html .

× توفير المكتبات العربية

فى هذه الآونة الراهنة ظهرت على الساحة الأكاديمية النيجيرية صيحات عديدة تنادي بأعلى صوتها إلى حماية المخطوطات والاعتناء بها وذلك بعقد الندوات والمؤتمرات التى تحمل محاور نقاشها ويتمحور مدار حوارها على أهمية حفاظ المخطوطات، ولكن مع ذلك نحفز أوعيتنا أن هذا الحفاظ المستهدف إليه لايتحقق بتضافر هذه الندوات والمؤتمرات فحسب بل بتوظيف تلك الوسائل التى اتخذتها المملكة المالية على العموم و(تمبكتو)

على الخصوص مسارا لها فى عملية حماية هذه المخطوطات، بل بالترسم على تلك الخطط التى سارت عليها إلى أن وصلت سفينة أمرها ساحل الأمن و الأمان، فأصبحت بذلك إحدى مكتباتها تمنح الجائزة(٢١) اعترافا بفعاليتها نحو حماية هذه المخطوطات العربية وتراثها الإسلامي.

ومن هذه الخطط وأهميتها إنشاء المكتبات العديدة على الصفة العامة والخاصة مع فتح أبوابها على مصراعيها للباحثين والكتاب والطلبة، ولا يعني إطلاق هذا الفتح عدم الضبط والاحتفاظ على شروط وقيود وضوابط التى تلزم مراعاتها على كل من يريد التعامل مع هذه المكتبات.

وتعكس هذه وفرة المكتبات فى (تمبكتو) وحدها التى تزخر بمكتبات عديدة ثرية تفعم بالتراث العربى الإسلامى كمكتبة (ماما حيدرة) التى تقع فى الجنوب الشرقى لمدينة تمبكتو وتحتضن نحو تسعة آلاف (٩٠٠٠) مخطوطا، وعلى شاكلتها مكتبة (فوندوكعتى) التى توجد على نحو بعد ثلاثين (٣٠) مترا شرق مكتبة ماما حيدرة السابق ذكرها، وهذه المكتبة قد كانت فى أول أمرها واقعة فى منطقة طليطلة ثم نقلت إلى غرناطة فصقلية، ثم مكتبة (محمد عيسى الأنصاري) والتى فى حقيقتها كبقية من التراث المخطوط والذخيرة العلمية والثقافية التى كانت عائلات كثيرة من قبيلة الأنصار تتوارثها وتتداولها، ثم مكتبة المصطفى كوناتي ومكتبة القاضي محمد محمود بن الشيخ الأرواني ومكتبة يحيى ولد كنى وأمثالها(٢٢)، فهذه المكتبات كلها توجد فى تمبكتو وحدها بدون النظر إلى بقية أخواتها الكاثرة فى جمهورية مالى على العموم غير أن معظمها -قبل الآن بقليل- انتهكت حرماتها جراء اضطهادات سياسية دولية شُنّت على تمبكتو وغيرها من المدن المالية .

× تشكيل اللجان والجمعيات

ومما يحقق الحفاظ على مخطوطاتنا فى هذه الديار –نيجيريا- تشكيل اللجان أو الجمعيات التى تسعى وراء هدف وحيد فى رعاية شئون المكتبات وتعمل بالجدية فى متطلباتها مما يضمن لها الكماليات.

ونرى فى هذا الصدد من الأنسب بمكان أن نشير إلى محاولة أحد فرسان العربية الذى ركّز معظم حياته على خدمتها واحتضان بلاغة لسانها من محاضريي الجامعات النيجيرية ، حيث أفادني أثناء الحوار الذى أجريناه ونحن فى موضوع يمسّ المخطوطات العربية، أنه كان مما يرمى إليه بالقصد فى المستقبل القريب –إن شاءالله- إنشاء مركز خاص يجعل اهتمامه رهن المخطوطات العربية حيث يدرّب فيه كيفية التحقيق وتوصل إلى أذهان الدارسين قواعد وأساليب تعرف قبل الإقدام إلى عملية الفهرسة والتحقيق والنشر(٢٣) مما نتجاوب بها مع تلك الدعوة العالمية الإسلامية التي تثبت أن عدم الفهارس الشاملة للممتلكات المخطوطية في العالم الإسلامى هي التي تمثّل عرقلة أساسية، وأدرك خطورتها معظم العاملين في عالم البحث الحديث منذ العقد الأخير في القرن العشرين(٢٤).

ومن المهام التى تناط بأعناق هذه اللجان أو الجمعيات مسؤولية جمع المخطوطات وتصويرها من أماكنها المختلفة فى داخل البلاد وخارجها لتكون فى متناول أيدي القراء والباحثين ترسّما على خطط معهد المخطوطات العربية بالقاهرة الذي أرسل بعثات لتصوير المخطوطات فى مختلف الأقطار العربية والغربية كسوريا ومصر نفسها وتركيا والهند والقدس وبيروت والمملكة العربية السعودية وتونس وإيطاليا وغيرها، وتراوح إرسال هذه البعثات عقدا من الزمن وذلك عام١٩٤٧-١٩٥٧م(٢٥)فبلغ ماصوره المعهد من هذه المكتبات تقريبا خمسة عشر ألفا (١٥٠٠٠) وبلغ ماكبره من الأوراق ثمانين ألف ورقة(٢٦).

وفى نيجيريا كثير من المخطوطات كانت فى حيز ضيق لم تجد نور الحياة بالقراءة والدراسة والتحقيق بل احتكرها أصحابها خوفا من تعرضها على أيدي السرقة أو تغتالها يد الضياع؛ وهذه الأحوال وغيرها فى الحقيقة مما دعت إلى اختفاء المخطوطات فى حقبة من الزمن عن الأنظار فى جمهورية مالي؛ حيث كان العلماء يخفون ما عندهم من المخطوطات فمنهم من حفر لها ووضعها تحت الأرض وجعلها فى حقائب من الجلد ومنهم من نقلها إلى الصحراء بعيدة عن أعين الناس ، ومنهم من جعلها فى الكهوف المهجورة ومنهم من بنى على أبواب مكتباتهم

بالطين حتى لايرى لها أثر(٢٧).

دامت هذه الأحوال حقبة من الزمن ثم أنزل الله فى مكان خوف أولئك العلماء أمنا، وانقشعت عنهم الروعة فبدأ العاملون بمركز أحمد بابا بتمبكت يبذلون قصارى جهودهم فى البحث والتنقيب عن المخطوطات فقاموا بحملات لتوعية الناس وحثّهم على استخراج مخطوطاتهم من المخابئ واستخدموا سياسات شتى لطمأنتهم وأفادوهم علما بأن الهدف من جمع هذه المخطوطات هو صيانتها وحفظها من السرقة والنهب التى كانوا يخافون منها من قبل وأنها تبقى رهن إشارتهم عند ما يريدون الاستفادة منها فى البحث أو المطالعة، فعند ذلك بدأ الناس فى حفر ما كانت مدفونة وفتح بعض الخزانات التى كانت شدت بالطين، وهكذا تم جمع بعض المخطوطات تدريجيا بفضل جهود جبارة وتكاليف باهظة من قبل المسؤولين على المركز.

ولقد استعرضنا هاتين الحالتين -الخفاء والظهور- كما مرت عليهما المخطوطات فى جمهورية مالي لنسقي منها الخبرة الكافية فى عملية البحث والتنقيب فى جمع المخطوطات، ولانتقل جهودهم المبذولة تجاه هذه العملية عن تلك الجهود التى قاموا بها فى تنظيف هذه المخطوطات –بعد جمعها- من الغبار وآثار الأرضة والأوساخ ثم فى ترتيبها وتصنيفها والقيام بتحقيق بعضها وترجمتها إلى اللغات العالمية مثل الإنجليزية والفرنسية وغيرهما ثم نشرها واستغلالها والقيام بالبحوث حول جميع الموضوعات المهمة التى تتناولها هذه المخطوطات ثم ترجمته هذه البحوث ونشرها.

× إقامة الدورات التدريبية

إنه لمن الصعوبات التى تضارع كثيرا من تراثنا المخطوط فى هذه الديار عملية التحقيق والنشر، إذ كان من الندورة بمكان القيام بتحقيق هذه المخطوطات الذى به يظهر ما لها من القيم العالية والمعلومات القيمة وذلك إذا تناولها أيدي الدارسين والباحثين بالتحقيق والنشر، ولعل ما يسبب هذه الندورة عدم معرفة كثير كيفية التحقيق وعدم تفتح بعض الدارسين على القواعد والأساليب التى تجب مراعاتها عند الإقدام عليه.

ولقد ظهر علي الصعيد العربي كثير من المحققين أمثال الأستاذ عبد السلام هارون والدكتور محمد مندور ومحي الدين عبد الحميد والدكتور صلاح الدين المنجد وغيرهم ممن كان لهم أبرز جهود في كيفية التحقيق حتى أفرد له الأول كتابا خاصا أسماه « تحقيق النصوص ونشرها « إلا أنه أوخذ على أساليبه فى التحقيق وذلك فى عدم اطلاعه على الطرق التى وضعها المستشرقون لنشر المخطوطات لحوزهم قصب السبق على العرب فى تحقيق التراث ونشره وأنهم سبقوهم إليه بمئة عام قبل اهتمامهم فى الربع القرن الماضى بنشر تراثهم القديم وتحقيقه(٢٨)ومما أوخذ عليه أنه لم يميز قواعد تحقيق المخطوطات من العلوم المساعدة على التحقيق فجاء بجثه خليطا من كل شيء لامنهج فيه ولا تنسيق(٢٩) وذلك لإغفاله عن القواعد التى وضعها المستشرقون في التحقيق والنشر، وهي تلك القواعد التى تتبع فى أروبا لنشر النصوص الكلاسيكية اليونانية واللاتينية وهى بمجموعها قواعد دقيقة تضمن الأمانة فى إخراج النص وتضمن أن يأتى النص المنشور كما وضع فى أصله(٣٠)

ومن الإنصاف بمكان أن نعترف ولا نستخف بجهودهم الجبارة المبذولة فى التحقيق ونشر بعض تراثنا العربي والإسلامي الذى لم نجد إليه من قبل سبيلا،كما وضعوا بين أيدينا نصوصا لم نسمع-من قبل- لها ركزا كمعجم البلدان لياقوت الحموي الذى نشره (وستنفلد) سنة ١٨٦٦هجرية، والمنتخب من تاريخ حلب لابن النديم الذى نشره (فريتاغ) سنة ١٨١٩هجرية(٣١) إلا أن أحد الباحثين يرى أن المستشرقين فى تحقيق هذه المخطوطات حققوها وعلقوا عليها حسب علمهم وميولهم ونقدوها حسب تعصبهم وطبعوها لمنفعة علماء الدراسات العربية والإسلامية(٣٢).

علاوة على ذلك لنستحضر فى هذا الصدد تلك القواعد التى وضعت للتحقيق والنشر وهي تضمن الأمانة للنص المنشور – كما سبق- بحيث لايتطرق إليه أي تغيير و تحريف أو تصحيف وتبديل لم يوجد في الأصل.

× قواعد التحقيق والنشر

ولقد اقتضت أيدلوجيا العلمية أن تضع لأي علم من العلوم قواعد

وضوابط يسير على بصيرة منها بالتتبع والمراعاة كل من يقدم إليه ليكتسب فى عمله المنهجية والأسلوبية المرنة، التى من خلالها يساق لها الجودة والجمال الفنى.

ولقد ذهب البعض إلى أن المجمع العلمى العربي بدمشق أول من وضع نهجا فى التحقيق بين المؤسسات العلمية واللجان والعلماء(٣٣)ووضع هذا النهج عند إرادته لنشر « تاريخ مدينة دمشق» وهو أوسع تاريخ كتب عن مدينة يقع فى ثمانين مجلدا، ثم جمع لجنة من العلماء لوضع قواعد عامة تتبع فى تحقيق مجلدات التاريخ(٣٤) فأصبحت منهجا موجزا على حسب ما يلى:

- وجوب العناية باختلاف الروايات وإثبات ماصح منها، إذ العناية من تحقيق الكتاب هو تقديم نص صحيح .
- مراعاة الإيجاز الشديد فى التعليق كي لا يثقل النص الأصلى بتعليقات طوال.
- ضبط الأعلام الواردة فى العمل المحقق وذلك من خلال نبذ يسيرة للتعرف على شخصياتهم وهوياتهم من حيث المواليد والأمزجة والجنسية وأهم جهودهم المقدمة نحو البشرية – إن صح التعبير.
- العناية بتفسير الألفاظ الغامضة لكشف النقاب عن المعاني ولتسهيل الفهم المتواصل فى فحوى النص المحقق.
- صرف النظر عن تخريج الأحاديث اللهم إلا إذا كانت فى أمسّ الحاجة الملحة فى ذلك كرفع الشكوك عن صحة الحديث من حيث المتن والسند.
- الانتباه التام على علامات الترقيم فى أماكنها الحساسة فى النصّ المحقّق كالنقطة أو النقطتين والفاصلة وعلامة الاستفهام والتعجب لتوضيح النص.
- إثبات الآيات القرآنية بين قوسين مزهرين لئلا يختلط النص القرآنيّ بغيره من النصوص الموجودة فى العمل المحقّق والإشعار بأماكنها فى المصحف الكريم.
- ترقيم سطور النص(٣٥).

وتضاف إلي تلك القواعد السابقة إجازة السماع وهي مما يسترعي انتباه المحقّق، فلا بدّ أن نلفت لها الأنظار ولو بالتلميح ليحاول من أراد فيه التوسع تحصيل المقررات أو الكتب التى ألفت فى الموضوع.

وتعتبر هذه إجازات السماع صورة من الصور التى تعارف عليها القدامى عن الشهادات العلمية التى تمنح اليوم، إلا أنها شهادات فردية تثبت عند سماع كتاب واحد(٣٦)، فعلى المحقّق أن يرعى لها الانتباه ويوليها الاهتمام إذا كانت فى العمل المحقق فيذكر فيه أولا اسم المسمع فأسماء السامعين و النص على ما سمعه الحاضرون من الكتاب واسم القارئ والنسخة المقروءة وكاتب السماع وورود لفظ صحّ وثبت، ثم مكان السماع وتاريخ السماع ومدته وقيمة السماع وفائدته(٣٧) مما لاتسمح لنا الفرصة – بالتفصيل لها – فى هذه العجالة لكونها موضوعا موسّعا فى أماكنها فليرجع القارئ العزيز إلى أماكن دراستها بالتفصيل

هوامش

١- مجمع اللغة العربية ، معجم الوجيز، صـ٢٠٢

٢- أغاكا، عبد الباقي شعيب (البروفيسور)، البلاغة القرآنية لدى العلامة عبدالله بن فودي، الطبعة الأولى،١٤١٣هجرية، ٢٠٠٩م. صـ٧

٣- ثان، حامد (البروفيسور)، الكنز المهدّد بالانقراض: المخطوطات العربية فى نيجيرية بين تقلبات وتطلّعات وتحديات ،ورقة مقدّمة للمؤتمر الثامن والعشرين لجمعية معلّمى الدراسات العربية والإسلامية بنيجيريا (نتائس) بأوشن ٢٠٠٩/٨/١٠م- ٢٠٠٩/٨/١٤م،

صـ١

٤- مؤسسة الفرقان، جائزة القذّافي الدولية لحقوق الإنسان، إصدار خاص بمناسبة منح الجائزة للعام ٢٠٠٧م إلى معهد أحمد بابا للدراسات العليا والبحوث الإسلامية صـ١

٥- Bodam، Rosemary N.S: The Present State of Arabic Manuscripts in the Jos museum. Being a paper presented at the National Conference Organised by Arewa House، ABU، and Ford Foundation Office for West Africa 7th May-8th May، ٢٠٠٨، pp; ١

٦- Bodam، Rosemary N.S

٧- Oseni، Zakariyau Idrees، Arabic Manuscripts in the National Museum at Jos and their potentials for the Advancement of knowledge. Being a paper presented at a two- day National Conference on the Exploration of Nigeria Arabic/Ajemi Manuscript recourses for the development of new knowledge، on the 7th May-8th May، ٢٠٠٩، pp;١٢

٨- الصارمي، عيسى عبد الكريم وغيره، المخطوطات العربية فى المتحف الوطني بجوس «بيان وإحصاء» ورقة مقدّمة للمؤتمر الثامن والعشرين لجمعية معلّمي الدراسات العربية و الإسلامية بنيجيريا (نتائس) بأوشن ٢٠٠٩/٨/١٠م، صـ٤

٩- Oseni، pp ;٣

١٠- الصارمي، المرجع السابق، صـ٨

١١- مؤسسة الفرقان، . صـ٦

١٢- Oseni، pp ;٣

١٣- ثان، حامد (البروفسور)، المرجع السابق، صـ٦

١٤- بابا، يونس أحمد، فهرس مخطوطات دار الوثائق القومية النيجيرية ، الجزء الأول، لندن ١٤١٨ هجرية ١٩٩٧م، صـ١٩٧- صـ١٩٢

١٥- المرجع نفسه، صـ١٥٨-صـ١٣٩

١٦- مؤسسة الفرقان، المرجع السابق، صـ١

١٧- المرجع نفسه

١٨- مؤسسة الفرقان، المرجع السابق، صـ٢٢-صـ٢١

١٩- Bodam، Rosemary N.S، pp ; ٩-١١

٢٠- ثان، حامد (البروفسور) المرجع السابق، صـ١٣-صـ١٢

٢١- مؤسسة الفرقان، المرجع السابق، صـ٢٢-صـ٢١

٢٢- المرجع نفسه، صـ٥٣-صـ٥٢

٢٣- من خلال الحوار الذي حصل بين الباحث والأستاذ الدكتور عبد الباقي شعيب أغاكا بتاريخ ٢٠٠٩/٥/٥م

٢٤- ثاني، حامد (البروفسور)، المرجع السابق، صـ٩

٢٥- المنجد، صلاح الدين، صلاح الدين، نشاط معهد المخطوطات العربية من ١٩٤٧م إلى ١٩٥٧م، دار ممفيس للطباعة. صـ١٤-صـ٥

٢٦- المرجع نفسه، صـ١٤

٢٧- مماحيدره،عبد القادر، وضع المخطوطات فى مالى والجهود فى سبيل حمايتها، ط،تمبكت ٢٠٠٣م صـ٤

٢٨- المنجد، صلاح الدين، قواعد تحقيق النصوص، الطبعة الرابعة، دار الكتاب الجديد، بيروت- لبنان،١٩٧٠م. صـ٤

٢٩- المرجع نفسه

٣٠- المرجع نفسه، صـ٨

٣١- المرجع نفسه، صـ٧

٣٢- Oseni، pp ;٤٧

٣٣- المنجد، صلاح الدين، إجازة السماع في المخطوطات القديمة، بدون. صـ١٥

٣٤- المرجع نفسه، صـ٩

٣٥- المرجع نفسه بمزيدات يسبرة

٣٦- المرجع نفسه، صـ٢٣٢

٣٧- المرجع نفسه، صـ٢٤١-صـ٢٣٤